محاضرات في الأدب الجزائري.

المناخ الثقافي والأدبي:

لم يكن عامل الصحافة حكرا على الساحة السياسية وحسب، وإنما يعتبر كذلك مسرح الأحداث الثقافية والأدبية التي واكبت الحركة الوطنية، ولا غرابة في أن المناخ الثقافي لم يكن أحسن حالا مما هو عليه المجتمع الجزائري، الذي لا يزال يرزح تحت نير الاستعمار وظلمات القهر ، ولا بأس أن نعرض – بشكل من الإيجاز- لأهم الأجواء الثقافية في الجزائر على عهد الاحتلال.

- الواقع الثقافي:

و لأن الثقافة ما هي إلا نتيجة للسياسة الاستعمارية الرامية إلى بناء صرح ثقافي يضمن بقاء المستعمر، أطول مدة زمنية ممكنة، ولذلك وجب عليه أن يقف حازما صارما أمام كل محاولة من شأنها تثقيف الجزائريين بما يتنافى وما يصبو إليه الاحتلال، فقد منع المدارس وأغلق الزوايا وحول معظم المساجد إلى كنائس .

فأما المدارس فأنشأ بدلا منها مدارسه الخاصة، ينفق عليها المحتل، تسمح بتعلم الجزائريين فيها، ولكن على المقاس الفرنسي، فاللغة التي يدرسون بها هي الفرنسية ولا وجود للعربية إطلاقا، لأنه من الخطورة بمكان تعليمها، وكان من خريجي المدارس الخاصة نخبة حملت الثقافة الفرنسية ومثلتها أحسن تمثيل، ونذكر منهم (فرحات عباس) وهذه النخبة تعكس بحق مرامي الاستعمار وأهدافه من خلال مبادئها وطريقة نضالها. أما الزوايا، ونظرا لإشعاعها الديني الذي يأبى الضيم ويحث على الجهاد، فكان الخلاص منها بإغلاقها، وفي أحسن الأحوال جعلها مركزا لنشر الخرافات والأباطيل، من قبيل مشعوذين أغراهم المستعمر بهذا العمل مقابل أن يضمن لهم الحياة في ظروف حسنة، حسب زعمه، وبنظرة خاطفة على هذه المراكز الإشعاعية الدينية، نستشف مدى خطورتها على الوجود الاستعماري في البلدان الإسلامية والذي ينظر إليه على انه كافر يجب أن يجاهد... لذلك عمل المحتل المستحيل لإزالتها من طريقه.

لقد فتحت فرنسا أمام الجزائريين مجالا على مستوى متدن للتأقلم الثقافي مع الغرب[1]، تمثل في إرسال طلبتها الذين تخرجوا من المدارس الخاصة، ليكملوا تعليمهم بفرنسا، ولا يسمح بذلك خارج الحدود الفرنسية، كما عمل المستعمر ما في وسعه على إبادة اللغة العربية، لأنها شرارة الخطر، ولأنها لغة الدين كما إنها لغة العامة من الناس، وان القضاء عليها هو حتما القضاء على رابطة الدين بين الجزائريين وإخوانهم المسلمين والعرب قاطبة. وبذلك يصبح من اليسير فصل هذا العضو الحساس(الجزائر) عن الجسم ككل(الأمة الإسلامية)، ثم إن إهمال اللغة العربية قد دعا لغات أخرى كالبربرية والإفرنجية إلى مزاحمتها، إما في المعاهد والثانويات، كانت اللغة العربية تدرس على أنها لغة أجنبية أو لغة ثانوية، كما برز جليا جهل الجزائريين للغة العربية

---

[1] - نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير. ص 64 .

الفصحى، تمثل ذلك في قلة إقبالهم على ما هو مكتوب بالفصحى، واحتشادهم الحماسي لما يقال أو يكتب بالعامية. نجح المستعمر في كسب رهان تدمير اللغة العربية، إذ تشير المصادر أن غالبية الجزائريين أصبحوا يتكلمون الفرنسية، ومنهم من يكتب بها، في حين لا تجد إلا قلة قليلة تتقن اللغة العربية. اللهم أولئك الأئمة الذين تخرجوا من الزوايا قبل أن تدنسها أقدام الغزاة، أو منهم من تشرب بثقافة المشرق العربي، ونهل اللغة العربية من مصادرها من غير كدر، كابن باديس والإبراهيمي.. إن تصميم الاستعمار على محو آثار اللغة العربية، جعله يهتدي إلى أخطر وسيلة يمكنه بفضلها تحقيق غرضين؛ أولهما بالطبع طمس العربية، وثانيهما التفرقة بين الجزائريين، ونحن نقصد بهذه الوسيلة الخطيرة، أن المستعمر عمل على تقوية اللغة البربرية على حساب اللغة العربية، ولا يفوتنا أن نذكر أن اللغة البربرية إنما هي لهجة قبائلية يكثر انتشارها في جبال الأوراس، والقبائل الكبرى على ذلك العهد ، وأن وجودها بالمدن شبه منعدم، إذ اغتنم المستعمر فرصة بعد هذه المناطق، فشجع على تعليمها في المدارس والزوايا والمساجد التي خصصها لهذا الغرض، والهدف الجوهري لهذا العمل إنما هو ضرب الإسلام في الصميم، لأنه الرابط المتين بين العرب والبربر في الجزائر هذا الرابط القائم على العدل والمساواة. لذلك أوكل مهمة التعليم للآباء والراهبات، وقد بدأت أولى محاولات التعليم هذه في بلاد القبائل ما بين(1880/1873)[1].

وهي الفرصة المواتية لتمرير مشروع المسيحية، الذي كان يبحث عنه المستعمر وبالدرجة الأولى المبشرون، هؤلاء كان مطمحهم أن يجعلوا من الجزائر حصنا منيعا للمسيحية، وخلية اتصال بين روافد البحر الأبيض المتوسط، ومنها يسهل انتشار المسيحية في إفريقيا كلها، هذه المحاولات وان كانت حازت نوعا من النجاح، إلا إن الجزائريين تفطنوا لها، فرفضوها وانبرى العلماء للدفاع عن العروبة والإسلام. حيث يقول الشيخ البشير الإبراهيمي، عن محاولة تقوية اللغة البربرية في الجزائر: "ما هذه النغمة السمجة التي ارتفعت قبل سنين في راديو الجزائر بإذاعة الأغاني القبائلية وإذاعة الأخبار باللسان القبائلي، إن القبائل مسلمون عرب، كتابهم القرآن يقرؤونه بالعربية ولا يرضون بدينهم ولا بلغته بديلا"[1]. ومن الواضح أن المحتل عمد إلى تثقيف الجزائريين ثقافة فرنسية، وتلك إنما هي من وسائل القمع والمسخ والفسخ، ترمي إلى سلخ أصول الجزائريين، وفصلهم عن الأمة العربية.

لم يكتف المحتل بالمجال الثقافي، إنما امتد إلى روافده ولعل حصر الأدب ومنع الإنتاج الأدبي من الصدور وقمع الأدباء كفيلة بتوضيح سياسة الغطرسة الاستعمارية وتحديد أهداف ومطامع المحتل.

ولأن مجال الأدب واسع، أضف إلى ذلك أنه مجال دراستنا المتواضعة، نحاول في هذا العنصر أن نسهب قليلا لتوضيح مدى أهمية الأدب في التوعية والإرشاد.

- الواقع الأدبي:

---

[1] - م،س. ص80.
[1] - م،س. ص 85.

"إن أدب الحرب ـ أدب المعركة، لا فرق- كان موجودا منذ بدأت الحروب والمعارك وإلى أن تزول، فالحرب تابعة للسياسة بوسائل أخرى، والسياسة لا تنفصل عن الثقافة، وهذه جماع التجربة الذهنية للإنسانية"[1].

فالسياسة القمعية للاستعمار والتي بنيت على الظلم والاضطهاد، جعلت من الثقافة الجزائرية مهلهلة لما عانته من مضايقات مزاحمة ومحاولات لطمسها. وباعتبار الأدب رافدا من روافد الثقافة، والأكثر احتكاكا بالواقع، فإنه حتما سيتأثر بما تأثرت به الثقافة وينعكس ذلك في النتاج الأدبي لتلك الفترة.

ولعل مهمة الأدب هي تغيير صورة المجتمع أو الفرد من الحسن إلى الأحسن ـ وفي أقل الأحوال التعبير عن حاجاته - فما بالك إذا كانت الصورة مشوهة؟ إن الأدب يظل يفتقر إلى الوعي بتلك العملية، و إلى ممارستها إذا وعاها، ويتحدد النجاح في الممارسة بفهم الظرف الذي تتم فيه، ففي السلم يتفرغ الأدباء للفن، وفي الحرب يتفرغ الأدب نفسه للحرب[2].

لأن الأدب جزء من الحياة و واجبه أن يعبر عنها، كما أن إيمان الأدباء الجزائريين ـ على عهد الاحتلال- بأن من لا يكون شيئا في عصره، لا يكون شيئا في العصور التي تليه. ولذلك أخلصوا أدبهم للدفاع عن كرامتهم وكرامة أمتهم، مما جعل المستعمر يقف سدا منيعا أمام الأدباء. حيث ضيق عليهم الخناق، ورماهم بالسلاسل والأغلال، وإن أول معول رفعه المستعمر لتحطيم صرح الأدب الجزائري هو منع الصحف والنشريات من الصدور، لأن الصحف وسيلة لنشر الأدب الذي يصل من خلالها إلى جمهوره من القراء. كما لم يكن بوسع الأدباء الجزائريين تحمل أعباء المطبعة، ليخرج إنتاجهم في شكل كتب، فربما وقف العائق المالي أمامهم، أو لأن الوقت الذي يصرفونه في إخراج الكتب، يصرفونه في متابعة قضايا أمتهم... وقليل أولئك الذين جعلوا إنتاجهم في كتاب، منهم (محمد الهادي الزاهري) الذي وضع كتاب (تراجم الشعراء الجزائريين) سنة 1926. ويقول الزاهري عما اعتوره من أسباب وعراقيل: «و لقد تعاورتني رياح أتعاب كثيرة في جمع هذا الكتاب، حتى أوشكت أن أغادر الأمر، وأعدم الصبر، وماذا عساك تجد من الإسعاف في أمة أدباؤها معدمون، وأغنياؤها ـ إلا القليل منهم- جاهلون، لا تسمع لهم في الصالحات ركزا، مع ما للاستعمار من توغل وللجهل من تأصل»[1].

والحق أن الأدب الجزائري، قد أصيب بركود شامل خلال القرن التاسع عشر، وخاصة الشعر؛ حيث "لا نكاد نعثر في السبعين سنة الأولى للاحتلال إلا على أدب هزيل ركيك في جانبيه المضموني

---

[1] - نجاح العطار وحنا مينه. أدب الحرب. دمشق. 1976. ط1.ص11.
[2] - م،س. ص12.
[1] - يحي الشيخ صالح. شعر الثورة عند مفدي زكاريا. ص 34.

والشكلي، فهو لا يعرف غير المدائح وقصائد المناسبات ميدانا له، ويبقى بعيدا عن المجتمع والسياسة ومعترك الحياة"[1].

ويعطي لنا محمد الطمار صورة صادقة عن الأدب الجزائري على عهد الاحتلال حين يقول: " إن الأدب لمرآة عصره، عرفناه قويا على عهد ما كان ملوك الجزائر أقوياء وعرفناه جميلا على حين كانت الحياة ناعمة جميلة مطمئنة، أما الآن فهذه الفتن تشب في جميع أطراف الجزائر.. فكثرت المحن وتألمت الجزائر. فالأدب هو الآخر أخذ الضعف يدب في مفاصله، وقل رجاله، ولم يبق من الحركة الفكرية التي طالما ازدهرت قبل هذه الفترة، إلا ذلك البصيص النافذ من بيوتات عرفت بالعلم من قديم "[2].

ما قال هذا الأديب الجزائري، ينطبق على الفترة الممتدة ما بين (1830/1514) وبعبارة أخرى؛ الأدب العربي في الجزائر في فترة الحكم العثماني، وقد عرض الأديب ـ الطمار محمد- الأدب الجزائري مجددا على طاولة الفحص، في فترة الاحتلال الفرنسي، ولكنه لم يخرج بنتيجة تذكر، حيث أقر هو نفسه: " سررنا لخروج الأدب من نكسته في القرن الحادي عشر الهجري، وتمنينا أن يسلك طريقا تؤدي إلى ما عرفه من الازدهار من قبل، ولكنه، ويا للأسف، رجع إلى نكسته على الرغم من أنه ظل مسيطرا على موقفه مستميتا في حفظ كيانه، فلا نستطيع أن نعثر على أديب يمثل حقا الحركة الأدبية .

بعد وفاة المقري، حتى القرن الثالث عشر الهجري، برزت شخصية فذة تتمثل في الأمير عبد القادر"[1]. كما ترى بعد مرور قرنين من الزمن تقريبا، عاشت فيها الجزائر حلقة مفرغة من الإنتاج في الحقل الأدبي، هذه الحالة وإن كانت سلبية بالنسبة للجانب الجزائري، تمثلت في العقم الثقافي والندرة في الإنتاج الأدبي، فإنها كانت ايجابية بالنسبة للاستعمار الذي استطاع أن يخلي الساحة من أي نشاط ثقافي أو أدبي من شأنه زعزعة وجوده. غير أن الأدب الجزائري-إن وجد- وبغض النظر عن قوته أو ضعفه، رفعته أو انحطاطه، كان صورة طبق الأصل للحياة، والمرآة العاكسة للأوضاع التي يرزح تحتها السواد الأعظم من الجزائريين. ويرى الدكتور أبو القاسم سعد الله؛ "أنه من عوامل بقاء المستعمر في الجزائر مدة أطول هو ذلك الفراغ الأدبي الذي كانت تعانيه الجزائر؛ والذي جعل كل شيء صامتا لا ينبس، هادئا لا يتحرك، راضيا لا يتمرد ، ذلك لأن الأدب الجزائري الحديث، وخصوصا الشعر، لم يكن منذ ظهوره محدود الهدف، عميق الصوت، قائد الخطوات، وإنما ظهر إلى جانب النشاط الوطني الآخر. وسار معه دون أن يتقدمه بخطوة واحدة رائدة..."[2] .

---

[1] - م،س. ص 35.
[2] - محمد الطمار. تاريخ الأدب الجزائري الحديث. ص 225.
[1] – م،س. ص 225.
[2] - سعد الله أبو القاسم، دراسات في الأدب الجزائري الحديث. ص 31

والحديث عن الأدب الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي، يأخذنا إلى الحديث – بالدرجة الأولى- عن الأغراض الأدبية الشائعة يومئذ، أو بالأحرى التي كانت ذات مقروئية أو تتصل بالأهداف اتصالا مباشرا، لا سيما المواضيع ذات الوقع المؤثر كالتي تحرض على الجهاد، وتدعو إلى اليقظة ونبذ الاستعمار. ومن غير اليسير الحديث عن هذه الأنواع دونما التعريج على تقسيم مجال الأدب الجزائري إلى شقيه البارزين (الشعر- النثر) ومن ثمة يمكن الوقوف على نقاط القوة والتأثير فيهما معا أو في أحدهما دون الآخر.

أ- جانب الشعر: ومما لا شك فيه أن الشعر الجزائري كان ظل الحركة الوطنية، إذ واكبها منذ بدأت، والملاحظ أنه كان صادقا، عكس الأوضاع الجزائرية في صورة تدعو في غالب الأحيان إلى الشفقة، ولعل ذلك من الأمور المحفزة على الثورة والانقلاب لتغيير هذه الأوضاع. " ويكفي الشعر الجزائري أنه احتفظ بميزة الصدق، وأنه كان صدى لخلجات الشعب وأناته، وصوتا لكفاحه، منذ استهل وما يزال معه جنبا إلى جنب لا يفتر ولا يلتفت إلى الوراء ولا تذهله الصفعات، التي يتلقاها من وقت لآخر من يد غير رحيمة"[1].

ويحسن بنا في هذا المقام أن ننوه بما قدمه الدكتور أبو القاسم سعد الله إلى الشعر الجزائري، حيث قسمه بحسب مواكبته للأحداث فيقول: " ولدراسة ذلك الشعر – الشعر الجزائري على عهد الاحتلال- ... بتقسيمه حسب الفترات التي يكثر فيها الاصطراع الشعبي، وتتدافع أثناءها الأمواج الوطنية في أشكال مختلفة ومن الممكن أن يكون هذا التقسيم على النحو التالي:

شعر المنابر:من أواخر القرن الماضي إلى 1925.

شعر الأجراس من 1925 إلى 1936.

شعر البناء من 1936 إلى 1945.

شعر الهدف من 1945 إلى 1954.

شعر الثورة من 1954 إلى ....."[1].

وليس المقصد من تقسيم هذا الشعر وضع حد فاصل بين تلك المراحل وإنما بحسب تتبع الأحداث التاريخية. ومدى تأثيرها في الشعر، ونحن من هذا المنطلق، سنركز دراستنا على الأنواع الثلاثة الأولى، وتحديدا من شعر المنابر إلى شعر البناء. وذلك لأن حدود دراستنا المتواضعة تتلاءم وهذا التقسيم.

1- شعر المنابر:

ولقد اختار الدكتور أبو القاسم سعد الله هذه التسمية، لأن هذا الشعر كان الهدف منه الوعظ والإرشاد، وتكثر فيه الكلمات الدينية الهادفة إلى الإصلاح، ولا يخلو كذلك من النبرة الخطابية، وهذه العوامل كلها تجعل من

---

[1] - م،س ص 31.ينظر:- محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية.دار الغرب الإسلامي،بيروت1985.
-عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم،دراسة في الجذور، دار هومة، الجزائر2000.

[1] - م،س. ص 35.

هذا النوع من الشعر أقرب إلى الخطب المنبرية. ومادام كذلك فْأنه صاحب الحركة الإصلاحية منذ نشأتها فكان يلقى في النوادي، كنادي (الترقي) ، واتخذ من الصحف الإصلاحية مجالا له ينشر فيها كصحيفة (الإقدام) ثم (المنتقد) و(الشهاب) فيما بعد. " ولكي تدرك مهمة هذا الشعر، يجب أن تتبع المدى الذي كانت عليه الجزائر آنذاك من الشعور بالخيبة والاستسلام للخرافات والأوهام، والعقد النفسية المتراكمة نتيجة لعاملين: الأول الغزو الداخلي الذي كان يشنه المشعوذون والرجعيون ، والثاني الغزو الخارجي الذي كان يقوم به أصحاب الأهواء والمطامع من أذناب الاستعمار.."[1].

ومعلوم أن أصحاب هذا النوع من الشعر سوف يعانون الأمرين مادامت فكرتهم إصلاحية وهدفهم الإبقاء الجزائر بكيانها الوطني فلا الإدماج ولا التجنيس يخدم شعبها العربي المسلم.

لقد كانت موضوعات شعر المنابر- ذات طابع الإرشاد والوعظ- تهدف إلى التذكير بحقيقة الإنسان وما سيلاقيه من موت وما لذلك من أهوال، وغيرها من الموضوعات التي كانت ردا صريحا على الخرافات والأباطيل، والشعوذة المنتشرة خصوصا بين سكان الريف الجزائري. ولو بحثنا عن أصحاب هذا النوع من الشعر (شعر المنابر) لوجدنا غالبيتهم إما شيوخ زوايا أو سبق لهم أن تخرجوا منها. كـ (محمد اللقاني) وغيره من شيوخ الشعر الجزائري الكلاسيكي، ولا نجزم بأن معظم هذا الشعر- إن لم أقل كله- قد خلا من أغراض الشعر العربي القديم. لأننا أمام حقيقة لا يمكن أن ننكرها وقد أثبتها مؤرخو وأدباء الجزائر، من أن الأمير عبد القادر كان شاعر عصره، وقد طرق جميع أغراض الشعر العربي القديم. وإن كان الأمير– أديبا- يمثل مرحلة شعر المنابر والأجراس، نراه تارة يعظ ويرشد، لأنه أحد زعماء الطريقة الصوفية – وهذا واجبه- وتارة ثانية يستنهض الهمم، ويدعو إلى الجهاد- و ذلك حال كل قائد- وتارة أخرى يتغزل أو يرثي أو يستعتب وما إلى ذلك..

ولا بأس أن نستشهد ببعض شعر الأمير عبد القادر تدليلا على بعض أغراض الشعر التي تناولها. فمن شعر الإخوانيات الذي عرف به الأمير عبد القادر، كتلك الرسائل الموحشة ببعض قصائده في الشوق لأهله وقواده. يقول الأمير عبد القادر في الترحيب بصديقه (محمد الشاذلي القسنطيني):

أهلا و سهلا بالحبيب القادم هذا النهار لدي خير مواسم.
جاء السرور مصباحا لقدومه وانزاح ما قد كان قبل ملازمي
أفديك بالنفس النفيسة زائرا من غير ما من ولست بنادم
طالت مساءلتي الركاب تشوقا لجمال رؤية وجهه الـ [illegible][1].

2- **شعر الأجراس**:

[1] - م،س. ص 36.
[1] - محمد الطمار . تاريخ الأدب الجزائري.. ص 273.

ذو نزعة واقعية، غير أنه ما يزال يدور في فلك الإصلاح. وهو بطبيعة الحال نتيجة لتطور الحركة الوطنية في الجزائر، ولعل التسمية (الأجراس) تعكس طبيعة الأوضاع آنذاك، فالحرب على الأبواب ولا بد أن تقرع الطبول. لذلك كان يجب على الأديب ـشاعرا كان أو ناثرا- من أن يساير الأحداث ووسيلته في ذلك قلمه، وقد أجمع الأدباء والمؤرخون الذين تناولوا الأدب الجزائري بالدراسة والفحص، أن ما كتب بين سنتي1925 و1954 شعرا أو نثرا، يحمل بأي شكل من الأشكال بذور الثورة، فلا تجد كاتبا أو شاعرا في هذه الفترة إلا ضمن أدبه ما يستنهض الهمم ويوقظ المشاعر ويدعو إلى الثورة. فلقد بلغ السيل الزبى والأوضاع تزداد تعفنا، وان الحدث الأكبر في الجزائر هو ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مايو1931. وبذلك تعززت الحركة الإصلاحية، وتمت الصحافة بميلاد جريدة (البصائر)، وتقوت بمجلة (الشهاب)، وخلال ذلك امتلأ الجو الجزائري بالغبار، وانعقدت في سماء الوطن كثير من السحب، التي كان منها ما ينقشع سريعا، ومنها ما يدوم طويلا... على كل حال فإن هذه السحب قد زادت الشعب إيمانا بنفسه."[1].

وينعت مالك بن نبي هذه المرحلة بالعصر الذهبي، الذي بدأ عام 1925، و استمر حتى زوال المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة1936 [2] .

لقد كان شعر الأجراس نابعا من الروح المتدفقة للشعب الجزائري، وحيث أن الشعب كان مندفعا في غير تخطيط، وهو ما تعكسه الحيرة التي تطبع شعراء وكتاب هذا النوع من الشعر، وإن كان شعر الأجراس يمثل مرحلة نهضة حقيقية، إلا أن المؤاخذ عليه انه لم يكن محدد الأهداف، أضف إلى ذلك من أن رؤى الشعراء والكتاب كانت متباينة فيما يخص طريقة مواجهة الاستعمار؛ فمنهم من آثر المباشرة و التحدي العلني، ومنهم من وجد له سبلا أخرى. ولعل أبرز شعراء هذه المرحلة؛ محمد العيد آل الخليفة، أحمد سحنون، مفدي زكرياء،.. وقد عكس هؤلاء الشعراء صورة الأوضاع الجزائرية في أشعارهم؛ فذاك محمد العيد يقول عن الجوع وعسر المعاش:

فشا الجوع واشتد عسر المعاش وعادت سنو يوسف الغابرة.

متى يستظل بظل النعيم مساكين يصلون بالساهرة

....

ألا من يجير فؤاد الصغير و يسكن لوعته الثائرة

تقول ارحموا ذلتي يا رجال أعزوا كرامتي الصاغرة[1].

---

[1] - سعد الله أبو القاسم. دراسات في الأدب الجزائري الحديث. ص 38.

[2] - م،س. ص38.

[1] - صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث.. ص 155.

وقد كان ما قال صورة صادقة عن الواقع الجزائري، ولا يصح إلا مثل ذلك القول عن استنهاض الهمم، وقد حذا أحمد سحنون حذو محمد العيد في الدفع بالجزائريين إلى الثورة فيقول:

فيا بني الضاد، يا شعب الجزائر يا جند الرسول أرجعوا للضاد ماضيها.

أقضوا حقوق البلاد، طالما مطلت منكم،فما غيركم، والله قاضيها.

لا ترضوا بحياة الذل ويحكم فليس دينكم، والله، راضيها.

تاريخكم لم تزل ملأى صحائفه بالمجد يبهر بالآيات تاليها.

عودوا إليه تعد أيام عزتكم نضاحة بالسنا غرا لياليها[2].

وقد نظم رمضان حمود قصيدة موضوعها (بماذا تحيا البلاد؟)، تنقل في صورة صادقة الحالة التي تتملك معظم الجزائريين؛يقول:

سألوني بماذا تحيا البلاد؟ وبماذا تعيش فيها العباد؟

كأسود طليقة في حماها ، لا ترى من يسوءها، لا تقاد.

وبماذا يقوم شعب ضعيف؟ من سقوط و قد دهته الشداد.

وبماذا يكون إصلاح قوم؟ نبذوا الدين للوراء وحادوا.

هل دواء هناك؟صفه.فإنا في عذاب يسومنا، هل ضماد؟[1].

ولا يمكننا الوقوف على كل الشعر الذي قيل في هذه المرحلة، والذي صاحب الحركة الإصلاحية ودعا إلى يقظة الشعب، وقد ازدادت الحركة الوطنية توهجا وزادت معها آمال الجزائريين في الحرية والاستقلال.

3- شعر البنـاء:

وهو شعر المرحلة الممتدة ما بين(1945/1936). بدأ بانعقاد المؤتمر الإسلامي الأول،وانتهى بأحداث الثامن ماي 19454.ولكنه لم يخل من تلك الاهتزازات والدوافع وحماس الحروب،وإن شئت فإن شعر هذه المرحلة يصلح أن يقال فيه شعر التريث والتعقل وانتظار الفرصة السانحة للانقضاض على المحتل. ولم يزل فيه محمد العيد آل الخليفة البلبل المغرد، والوطني الثائر، يتربع على عرش إمارة الشعر الجزائري وذلك لا يعني أن الشعراء في تلك المرحلة قد انشغلوا عن الشعر بأمور أخرى بل نقص نشاطهم، وفيما نعتقد ـ نحن على الأقل- أنهم رأوا أن لا فائدة من الشعر والكلمة ولا مناص من الحرب.

وكان إلى جانب محمد العيد كل من مفدي زكرياء وأحمد سحنون، وإن كانا قد وجدا من قبل إلا أن صيتهما ذاع في هذه المرحلة أكثر من غيرها، ولعل الملاحظ عن هذه المرحلة أنها متزامنة مع الحرب العالمية الثانية والتي تعد نقطة تحول في مسيرة التاريخ. أضف إلى ذلك انعقاد المؤتمر الإسلامي في سنة

---

[2] - سحنون أحمد. ديوان أحمد سحنون.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع . الجزائر.1975.ص .27.26 .

[1] - صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث. ص 137.

1936 لدراسة الأوضاع الجزائرية وكيفية التعامل مع المحتل، "وقد حضرته معظم الهيئات الوطنية السياسية والدينية، وإن كان هذا المؤتمر قد فشل سياسيا؛ فإنه كان نقطة انطلاق كبيرة في تاريخ الكفاح الجزائري"[1].

ولأن المؤتمر قد رسم معالم القضية الجزائرية بوضوح، وأبرز الطريق الصحيح لكسبها، ولعل هذا المؤتمر هو النقطة الأولى التي تتفق فيها الكتل السياسية على اختلاف مشاربها وتباين مبادئها .

وفي هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الجزائر أخذ الشعر على عاتقه الدعوة إلى الوحدة الشعبية والوطنية النقية، وإلى التحرر من الماضي البغيض ونسيان الذات في سبيل المثل العليا، كما أخذ شعر البناء يواجه العدو بشيء من الصراحة والتسديد.

ومن مثل هذا الشعر قول أحمد سحنون:

فعودوا وسووا للكفاح صفوفكم و خوضوا إلى تحريركم لجج الخطب
فحسبكم قرن وعشرون حجة تجرعتم أثناءها غصص الكرب
كفى من حماس القول ما قل نفعه فأذكوا حماس الفعل في الفتية النجب
ولا تكلوا أمر البلاد لغيركم فإن الذئاب الطلس عاشت على النهب
ثبوا أيها العرب الكرام على الفدا فإن سواكم قد تهيأ للوثب[1]

هذه الأبيات على ما فيها من الاعتزاز بالوطنية، فهي لا تخلو من الحماس الشعري الذي يدفع إلى حياض الحرب وهو دعوة صريحة إلى الثورة وحسم الموقف فإن الأمد قد طال والأسر قد استطال، وليس أمام الجزائريين إلا الثورة؛ وقوله: "أيها العرب" تذكير بالأصول العربية لإثارة الحمية التي تأبى الظلم وتنفي عن حماها بكل ما تستطيع.

ويقول محمد العيد آل الخليفة إزاء تلك الأوضاع المزرية في ظل الظلم والاضطهاد، مستنجدا بالسلف الصالح، ليذكر الناشئة بخصال هذا السلف و حاجة الجزائر إليهم:

من فيكم يحيي خلالا أربعا يحيي الجزائر بالخلال الأربع
صدق العتيق وعزة الفاروق في حلم ابن عفان وعلم الأصلع
أذوي العمائم راجعوا تاريخكم من منذ عهد الداي حتى تبع[2].

وقد يكون- بلا شك ـ الشعر في هذه المرحلة قد انتقل نقلة جديدة،

---

[1] - سعد الله.أبو القاسم. دراسات في الأدب الجزائري الحديث. ص41.

[1] - سحنون أحمد . الديوان. ص 130-131.
[2]- صالح خرفي. الشعر الجزائري الحديث. ص 11.

وحدد الأهداف والغايات، إذ أصبح الأدب عموما والشعر خصوصا تحديا صارخا وإثارة صاخبة بعد الحرب العالمية الثانية، وتعد مرحلة شعر البناء هي المرحلة التي رتبت فيها الأمور تمهيدا لثورة الفاتح نوفمبر 54.

وإذا كان الشعر الجزائري بغض النظر عن مراحله قد لعب دورا بارزا وكان صوتا ناطقا للحركة الوطنية، ومرآة عاكسة للأوضاع الجزائرية؛ السياسية والثقافية والاجتماعية والدينية..

فماذا عن النثر في هذه المرحلة ؟، هل أفل و ترك الساحة للشعر وحده يكابد المحن؟، وهو ما سنعالجه في العنصر الآتي بشكل من الإيجاز.

ب- جانب النثر:

والمقصود بالنثر هو تلك الأشكال النثرية المعروفة في الفترة الممتدة ما بين(1945/1919)، لأن موضوع دراستنا هذه يتمحور حول هذه المرحلة من تاريخ الجزائر بالدرجة الأولى، وأحيل القارئ الكريم فيما بقي من مراحل هذا التاريخ والأشكال النثرية الأخرى على كتاب (تطور النثر الجزائري الحديث) لعبد الله ركيبي، والذي يعرض فيه إلى النثر الجزائري من(1974/1830).بشكل من التفصيل. ولا أخفي أنني اعتمدت عليه في هذا العنصر بالذات. لقد سار النثر إلى جانب الشعر في مسيرة الحركة الوطنية في شقها الأدبي، ولعل الأمير عبد القادر هو الأديب الذي استطاع أن يجمع إلى جانب أشعاره بعض المقتطفات النثرية المتمثلة في خطبه ورسائله، وهما ـ الخطابة والرسائل- شكلان شائعان في النثر التقليدي الجزائري، إلى جانب شكل آخر لا يقل أهمية عنهما ألا و هو القصص الشعبي.

فأما الخطابة ـ باعتبارها من أقدم الفنون النثرية عند العرب- فلقد ظهرت في الأدب الجزائري مع الأمير عبد القادر، ولكنها تختلف عن شكلها التقليدي المعتاد، إذ تخلصت من الصنعة اللفظية وأصبحت تطرق المواضيع بشكل من المباشرة.

وذلك "أن فترة الاحتلال كانت تساعد على هذا اللون من النثر، لأن الصراع بين الجزائر والاستعمار الفرنسي بلغ ذروته في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي، مما أسهم في أن يتغير أسلوب الخطب ومضمونها أيضا"[1].

كانت وظيفة الخطابة وسائر الفنون النثرية والشعرية الإبلاغ عن الأوضاع المتردية في الجزائر إلى جانب الدفع إلى اليقظة والحذر، ومن ثمة شحن النفوس الثائرة من أبناء الجزائر بقوى داخلية ترفض الظلم وتأبى الضيم ولا ترى سبيلا للخلاص منهما إلا الثورة.

وخرجت الخطابة إذا من التعبير عن الموضوعات المستهلكة المكررة التي لا تأتي إلا بالملل والسأم، بل إن جانب التنفير فيها كان أكثر من جانب الجذب إلى الموضوعات التي كانت تصب في قالب القضية

[1] - عبد الله ركيبي تطور النثر الجزائري الحديث. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1983.ص 14.

الـوطنية أو العقيدة الروحية، وما خطـب الأميـر عبد القادر إلا دليل على ذلك، فها هو ذا في إحدى خطبه يوضح موقفه من السلم والحرب، وذلك بعـد أن نقـض الأعداء معاهدة بينهما، فلا يجد سوى هذا الأسلـوب الحماسي الذي يحث على القتال طريقا لاستنـهاض الهمم و بعث النخوة في النفـوس؛ إذ يقول:"..أما بعد ؛فلا يخفى أن الله تعالى قال في كتابه المجيد(يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)، و قال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)"[1].

وإنّـك ترى أن الخطـابة لا تـزال تحوي جـانب الدين فيها والمتمثـل في الاستشهاد بالآيـات القرآنية، ولا غرابة أن هذه الآيات ذات وقع مؤثر، إذ تعطي صبغة الشرعية المطلقـة للجهـاد ضد الأعداء. بل إنه من المحفـزات ما دام الموت في ساحة الوغى استشهادا.

وقـد قـويت شوكة الخطـابة بميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ذات الـنزعة الإصلاحية، و التي تستدعي بالضرورة فن الخطابة أداة تعبير، لما لها من تأثيـر، و يأتي في مقـدمة خطباء الإصلاح الذين اشتهروا بالفصاحة والبيان ؛الشيخ "عبـد الحميد ابـن باديس" و" الإبـراهيمي" و "الطيـب العقـبي" و" أحمد توفيق المدني"..وغيرهم ممن بقيت آثارهم مسجلة في صحف جمعية العلماء مثـــل:الشهاب، البصائر، والصراط والشريعة وغيرها من المصادر، ولم يقـتصر فـن الخطـابة على الأمـير عبد القـادر أو رجال الإصلاح فقط، بل إن الضرورة دفعـت بزعماء الأحزاب السياسيـة إلى اعتماد الخطـابة في تعابـيرهم وخطـاباتـهم إلى الجماهـير، كما فعل حزب الشـعب الجزائري، أحـد هذه الأحزاب التي كان زعماؤها يرتجلون الخطـب لدفع الحماس الجماهيري إلى الثورة، أو على الأقل إلى اليقظة ولأن طريقتـهم المبنية على المواجهة والصراحة في مجـابهة المستعمر كـانت سببـا في مصادرة صحفهم، ومنع تسجيل هذه الخطب أو نشرها، والملفـت للانتباه في كل هذا أن الخطـابة لم تكن تسير على نمط واحد؛ وبوتيرة واحدة؛ بين الإصلاحيين وحزب الشـعب، لأن زعماء حزب الشعب الجزائري قد اعتمدوا إما الفرنسية، لشدة تأثيرها في المستعمر، لغة تعبير خطابية، أو العامية لقربها إلى فهم عامة الناس. أما الإصلاحيون فكانت لغتهم العربية الفصحى، موشحة بآيـات قرآنية أو أحاديث نبوية، " فالطابع العـام الذي تتسـم به خطب المصلحين هو طابع الدين والوعظ والتـركيز على فكرة الإحياء والرجوع إلى الماضي والدعوة إلى النهوض واليقظة، بينما خطب رجال حزب الشعب؛ يغلـب عليها طابع السياسـة والحماسة والانفعال القوي والهجـوم علـى الاستعمار وأعوانه والدعوة المباشرة إلى النضال من أجل الاستقلال"[1].

ومن الخطـأ أن يـظن أحـد أن علماء الإصلاح لم تخرج خطبـهم عن الإطـار الديني والطـابع السلفي، ولم يعـالجوا القضايا الوطنـية، بل إنـهم عـالجـوا الأوضـاع الاجتمـاعية وغيرها ولكن بالرجوع إلى الأصول وبالاستنـاد إلى مصـادر التشريع، المتمثـلة في الكتـاب والسنة..كما احتكموا إلى الواقع بنظرة اجتهـادية في

[1] - م،س. ص15.
[1] - عبد الله ركيبي. طور النثر الجزائري الحديث. ص 24.

أكثر من مناسبة، فهذا ابن باديس يلقي خطبة في سنة 1937، يشيد بالعروبة والعربية قائلا:"..أما بعد؛ فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام، وأنصار العلم والفضيلة، حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها. ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها، فتثير الشعور والمشاعر، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل، ويهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلى والمفاصل"[1].

كما أن ابن باديس مافتئ يحث رجال الإصلاح على مواجهة الاستعمار، وقد يعد من باب التقصير أن نتحدث عن فن الخطابة دون أن نشير إلى أحد أعلامها "الشيخ محمد البشير الإبراهيمي"، وما صرفنا عن ذكر خطبه أو بعضها ما عقدناه في هذا الفصل من التزام مبدإ الإيجاز والاختصار حتى لا تخرج الدراسة عن إطارها المحدد لها سلفا، و علنا نعذر في ذلك.

لقد أدى فن الخطابة ما ألقي على عاتقه من مهمة الإبلاغ والحث على المقاومة والنضال. وقد ساعد على ذلك عامل قد لا يتوفر في ما بقي من الفنون الأخرى، إلا وهو عامل المباشرة والمواجهة للجمهور المعني الأول بالأوضاع ونقصد بذلك أن الخطابة تلقى مباشرة إلى الشعب .

---

[1] - م،س. ص26. أنظر: مجلة المصادر، العدد06/ مارس 2002. ص111.